الحج عند الإخوان فرصة للدعاية والاستقطاب

رحلات البنا إلى البقاع المقدسة بداية الترويج لعالمية الجماعة

منذ تأسيسها سعت جماعة الإخوان المسلمين إلى استغلال فريضة الحج لأهداف سياسية، واعتبر مكتب الإرشاد الحج أحد بنود العهد الأساسي الذي بايع عناصرها عليه، حيث "أن من يتركه مع القدرة عليه يعتبر ناكثا للعهد، ويُسأل أمام الله عز وجل يوم القيامة عن تقصيره في الواجب والإخلال بشروط العهد، ومن لم يستطع الآن فليتجهّز له في المستقبل ويدّخر من أمواله ما تيسّر حتى يستطيع أداءه في المستقبل".

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

البنا عمل جاهدا لجعل الحج منبرا لأدبياته

تونس – يعتبر الحج بالنسبة إلى جماعة الإخوان ليس فريضة دينية فقط، وإنما هو ملتقى عالمي يستفاد منه لترويج الفكر ونشر العقيدة السياسية واستقطاب الأنصار وتوجيه المواقف وتنسيقها وفق الظروف والمعطيات، إذ توجد غاية عظمى لا يجوز إغفالها خاصة في هذا العصر الذي يوجب على المسلمين السعي نحو القوة والتوحد، ألا وهو أنه يجب على المسلمين أن يستغلوا هذه المناسبة لمعالجة ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم، وفق رأي الشيخ محمد الغزالي الذي يرى أنه "لا يجوز أن تترك هذه الحشود الهائلة يوم الحج الأكبر دون توجيه جامع تلقى به خصومها، صحيح أنهم في محاريب ذكر، وساحات تسبيح وتحميد، وأوقات تبتل إلى الله ونشدان لرضاه، لكن من قال: إن كسر العدو ليس عبادة؟ والسهر على هزيمتهم ليس تهجدا؟".

في 17 مارس 1935 اعتمد مجلس الشورى العام الثالث للإخوان المسلمين المنعقد في القاهرة لائحة الحج التي تحث كل فرد من الجماعة على التجهز لأداء فريضة الحج في حدود استطاعته، وأن تكون في كل منطقة لجنة فرعية تسمى (لجنة الدعاية للحج) وكان حسن البنا مؤسس الجماعة ومرشدها من الحريصين على الخروج في رحلات الحج.

وفي موسم 1936 دعا البنا أنصاره فلبّى دعوته مئة من أفراد الجماعة من بينهم 18 امرأة، وقد اهتمت جريدة أم القرى (كبرى الجرائد السعودية آنذاك) في عددها الصادر يوم 14 مارس 1936 بحج المرشد وصحبه، فنشرت تحت عنوان "على الرحب والسعة"، تقول "وصل على الباخرة (كوثر) التي أقلّت الفوج الأخير من الحُجّاج المصريين كثيرٌ من الشخصيات المصرية المحترمة لم تسعفنا الظروف بالتعرف إليهم إلا بعد صدور العدد الماضي، وإنا نذكر منهم الأستاذ الكبير حسن البنا المرشد العام لجمعية الإخوان المسلمين".

بعد أداء فريضة الحج، عقد البنا ومرافقوه اجتماعات مع عدد من الوفود القادمة من الدول الإسلامية، ودارت أغلب المحادثات حول الوضع السياسي لتلك الدول التي كانت أغلبها رازحا تحت نير الاستعمار، كما حضر البنا الندوة الأدبية التي أقامها الشباب السعودي في أوتيل مكة، ثم حضر الحفل السنوي بمنى بحضور عدد من الشخصيات البارزة.

الحج والدعاية الإخوانية

في كتابه "سرّ المعبد"، ينقل ثروت الخرباوي، عن القيادي الإخواني أحمد أبوغالي، قوله "كانت دولة آل سعود شاخصة في ذهن حسن البنا، وكان يعدّها الدولة 'البروفة' لدولة الخلافة الإسلامية، التي كان يرى نفسه من خلالها خليفة للمسلمين"، حيث ومنذ اللحظة الأولى لاتصال البنا بالمملكة العربية السعودية، وهو يسعى إلى تحقيق ذلك الحلم، وبدأ مساعي التنفيذ من خلال زياراته السنوية لإقامة شعائر الحج، التي بدأها بحجته الأولى عام 1936، ورغم رفض العاهل السعودي الملك عبدالعزيز طلب البنا بإقامة تجمعات للإخوان بالمملكة إلا أنّه عمل على تنفيذها سرا.

منذ أول زيارة إلى البقاع المقدسة، اتجه البنا إلى الترويج لعالمية الجماعة، فموسم الحج هو الفرصة الأنسب للاجتماع بوفود من مختلف الدول الإسلامية، ولتحقيق ذلك كان لا بد من الارتباط بعلاقات وطيدة مع السلطات السعودية ومع الملك عبدالعزيز، وهو ما يحتاج وفق خطته إلى التغلغل داخل المملكة. وفي هذا السياق يتحدث الباحث والكاتب السعودي عبدالله بن بجاد العتيبي في الفصل الأول من كتاب "الإخوان المسلمون في الخليج"، عن اهتمام البنا بإنشاء شعب للجماعة في المملكة، قائلا "ولعلّه في هذا العام (1936)؛ كان اللقاء الشهير بين حسن البنا والملك عبدالعزيز، والذي طلب فيه البنا إنشاء فرع لجماعة الإخوان المسلمين في السعودية، فكان جواب الملك عبدالعزيز ذكيا ودبلوماسيا حين رفض الطلب قائلاً للبنا "كلنا إخوان مسلمون"، وهو ما ذكره مؤرخ الإخوان محمود عبدالحليم بقوله "الأستاذ المرشد قد كاشفنا بأن فكرة الهجرة بالدعوة إلى بلد آخر من البلاد الإسلامية يكون أقرب إلى الإسلام من مصر، قد سيطرت على تفكيره وملأت نفسه"، لكن الموقف تغير بعد عودته من الحج، حيث قال البنا "وقد اتصلت بالمحكومين والحكام في كل بلد إسلامي، وخرجت من ذلك باقتناع تام بأن فكرة الهجرة بالدعوة أصبحت غير ذات موضوع وأن العدول عنها أمر واجب".

وروى عبدالحليم عن البنا قائلا "اعتاد الملك عبدالعزيز آل سعود أن يدعو كل عام كبار المسلمين الذين يفدون لأداء فريضة الحج إلى مؤتمر بمكة المكرمة، تكريما لهم وليتدارسوا أحوال المسلمين في العالم... وطبعا لم توجّه إلينا دعوة باعتبارنا من عامة الحجاج".

وتابع "علمت بموعد هذا المؤتمر وبمكانه الذي سينعقد فيه، فأعددت نفسي والإخوان المئة في هيئة موحدة هي الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء، وفي الموعد المحدد فوجئ علية القوم المجتمعون بمئة رجل في هذه الهيئة، يخطون خطوة واحدة يتوسط الصف الأول منهم رجل منهم هو المرشد العام فكان هذا حدثا مثيرا للالتفات"، وتحدث المتحدثون.

ثم يضيف البنا "فطلبت الكلمة واعتليت المنصة وارتجلت كلمة كانت أطول كلمة ألقيت، وكانت الكلمة الوحيدة التي أيقظت الحاضرين وقوبلت بالإعجاب، واهتزت لها المشاعر وما كدت أنهي كلمتي حتى أقبلت عليّ جميع الوفود تعانقني وتشد على يدي، وتعاهدني وتطلب التعرف علي وعلى من معي وتفتح قلوبها للفكرة التي تضمنتها كلمتي".

وقد توج البنا رحلة الحج تلك بمقابلة مع الملك عبدالعزيز تحدث عنها الأمير فهد بن محمد بن عبدالعزيز قائلا "سمعت عن مقابلة الملك عبدالعزيز لحسن البنا رئيس جماعة الإخوان المسلمين. وعرض البنا على الملك عبدالعزيز فتح مكتب لـ(الإخوان) في المملكة. ووافق الملك عبدالعزيز. وقال له (ما يخالف لكن من ستعينون في هذا المكتب؟) فاقترح حسن البنا اثنين من جماعة الإخوان.

ورد عليه الملك عبدالعزيز (لكن نسيتو واحد؟). وقال حسن البنا (من هو؟). فرد عليه الملك عبدالعزيز (أنا.. أجل حنا (مّنا) مسلمين؟ كلنا إخوان مسلمين)" وخلاصة الموضوع أن الملك عبدالعزيز، عندما حّج حسن البنا في العام 1936 قال له: يا طويل العمر أنا أريد أن أنشئ لي جماعة هنا عندكم. فقال له الملك عبدالعزيز: يا طويل العمر أنا شعبي كلهم مسلمون أين تضع جماعتك؟ ما لهم مكان. خليهم هناك في مصر".

وتم رفض جميع محاولات الإخوان فتح فرع للتنظيم في عهد الملك عبدالعزيز، وهو ما دفع الجماعة إلى مساع أخرى، وهي نشر أدبياتهم من خلال البعثات الدعوية إلى المملكة خلال مواسم الحج وتشكيل خلايا للجماعة في السعودية، وقام الإخوان بتصنيف المملكة ضمن الهيكل التنظيمي للتنظيم الدولي للجماعة، وفق كتاب "الإخوان والمجتمع المصري والدولي في الفترة من 1928–1938" لصاحبه جمعة أمين عبدالعزيز.

> الحج بالنسبة إلى جماعة الإخوان ليس فريضة دينية فقط، وإنما هو ملتقى عالمي يستفاد منه لترويج الفكر ونشر العقيدة السياسية واستقطاب الأنصار وتوجيه المواقف وتنسيقها وفق الظروف والمعطيات

في عام 1944 وبعد إقرار لائحة الحج الجديدة قرّر الإخوان أن يوفدوا بعثة رسمية إلى الأقطار الحجازية للحج؛ تمثّلهم وتدعو إلى فكرتهم، وتوثّق الصلات بينهم وبين الزعماء العرب والمسلمين، وكانت المفاجأة أن أعلن البنا أنه سيقوم بأداء فريضة الحج هذا العام، وقد تألّفت البعثة الرسمية للإخوان من المرشد العام حسن البنا رئيسًا، وحسين عبدالرازق وكيلا، وأحمد عطية أمينًا للصندوق، ومصطفى عشماوي مراقبا، وصالح قدور سكرتيرا، ومحمد أحمد سليمان، وعبدالله الصولي من الإسماعيلية، ومحمد السيد العيسوي، أنور الجندي من أبوتيج، وغيرهم الكثير من الإخوان.

وجاء في كتاب "مع بعثة الحج للإخوان المسلمين عام 1945" لأنور الجندي والصادر دار الطباعة والنشر الإسلامية، عام 1946 أن هذه البعثة تحركت يوم الخميس 8 من نوفمبر 1945، وانطلقت عبر الباخرة "قنديلا"، وكان على ظهر السفينة مع بعثة الإخوان بعثة جامعة فؤاد الأول، وجامعة فاروق الأول، ووزير الخارجية عبدالحميد بدوي، وصالح حرب باشا رئيس جمعية الشبان المسلمين، ومحمد العشماوي بك، وهدى شعراوي، وكثير غيرهم، وما إن بدأت الباخرة "قنديلا" تخترق بهم غمار البحر حتى قام المرشد العام يطوف بالراكبين مسلِّما ومهنِّئًا ومشجِّعًا.

ويروي الكتاب أنه "في يوم السبت وصلت البعثة إلى جدة وتوالت الوفود من مختلف الدول الإسلامية على بعثة الإخوان في منزل الضيافة للترحيب بالمرشد والجلوس معه".

ثم وقف الإخوان بمنى ثم عرفات، ويوم السبت 12 من ذي الحجة، وكان معتادا في أيام التشريق أن يقام مؤتمر سنوي للحجيج من مختلف الأقطار والهيئات في منى، وقد ناب الإخوان عن الهيئات المصرية في إقامة المؤتمر هذا العام، حيث تحدث الطاهر منير مسؤول إخوان السويس، ثم نمر الخطيب رئيس جماعة الاعتصام في فلسطين، وتسلم منه الكلمة المرشد العام ليخطب طويلا عن أوضاع المسلمين في العالم من المغرب إلى إندونيسيا وليبشّر بشعارات جماعته.

أما رحلة الحج الثالثة، فكانت في العام الموالي 1946، وقد تميّزت بدعوة خاصة وجهها الملك عبدالعزيز آل سعود إلى بعثة الإخوان المسلمين ثاني أيام العيد، فأحسن وفادتهم هو وأبناؤه الأمراء، ردا على الحفاوة البالغة التي استقبلته بها الجماعة في زيارته إلى مصر في العام 1945، حيث استقبله الإخوان بمطار القاهرة الدولي بالمشاعل والرايات والأناشيد، ثم سبقوه إلى الإسكندرية للترحيب به هناك، وهو ما ذكره يوسف القرضاوي في كتابه "ابن القرية والكتاب" بالقول "كانت رحلة إلى الإسكندرية بمناسبة زيارة الملك عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية إلى الإسكندرية".

خلايا سرية

شهد عام 1948 أكبر بعثة إخوانية للحج كان على رأسها القيادي عبدالرحمن الساعاتي شقيق المرشد العام حسن البنا الذي اختار هذه المرة السفر عبر الطائرة، وفي البقاع المقدسة دعا البنا إلى مؤتمر إسلامي لرؤساء وفود الحجيج حضره أمراء سعوديون، وألقى فيهم كلمة مطولة قال فيها "إني أشعر بأن جمعنا هذا يباركه الله رب العالمين، وتحضره الملائكة، لا.. بل يباركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، المشرّع الأعظم الذي جاء على فترة من الرسل لهداية الناس إلى حظيرة رب العالمين".

ثم أضاف "أيها الإخوان.. إننا في هذا البلد الحرام، وأمام بيت الله الحرام، وزمزم، ومقام إبراهيم؛ نعاهد الله عهدًا وثيقًا على أننا سنحمل عبء الجهاد والتضحية في سبيل اعتناق مبادئ الإسلام السامية، وتعاليمه الحكيمة، وسنحارب بعون الله جميع البدع والخرافات الدخيلة على ديننا السليم المبني على التوحيد الصحيح.. تلكم الفكرة السليمة التي من ذاق طعمها ذاق حلاوة الإيمان، وكان عند الله من المقبولين".

وتشير بعض المصادر الإخوانية إلى أن البنا انتقل بعد ذلك إلى المدينة المنورة، حيث تعرّض لمضايقات ومحاولات قتل ما دفع بالسلطات السعودية إلى تعيين حراسة له، إلى حين عودته إلى مصر في 24 نوفمبر 1948، وبعد أقل من أسبوعين، وتحديدا في 8 ديسمبر 1948، أصدر محمود فهمي النقراشي، رئيس الحكومة المصرية، في ذلك الوقت قرارًا بحل الجماعة بتهمة "التحريض والعمل ضد أمن الدولة"، لترد عليه الجماعة بأن اغتالته في 28 ديسمبر من العام ذاته، ثم أعلن عن اغتيال حسن البنا أمام جمعية الشبان المسلمين بشارع رمسيس في 12 فبراير 1949، بعد نشره مقالته الشهيرة "ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين".

بعد حل الجماعة في مصر سنة 1948 ثم في العام 1954 بعد تورطها في محاولة اغتيال جمال عبدالناصر في ما سمي بحادثة المنشية بالإسكندرية في 26 أكتوبر من العام ذاته، غادر عدد كبير من عناصر الجماعة مصر، واتجه عدد منهم إلى السعودية، مستفيدين من التحولات السياسية الإقليمية والدولية، ومن الخلافات بين البلدين حول عدد من القضايا وخاصة في ظل التوجه القومي والاشتراكي لمصر ولعلاقات القاهرة مع الاتحاد السوفييتي ثم بسبب حرب اليمن وغيرها.

وعندما نفذ حكم الإعدام في سيد قطب في أغسطس 1966 اتسعت رقعة استغلال الإخوان لمظلوميتهم المزعومة، فحصل بعضهم على الجنسية السعودية، وأبرزهم مناع القطان الذي كان أحد قيادات التنظيم في المنوفية بمصر قبل أن يهاجر إلى السعودية عام 1953، وعرف لاحقا بأنه مسؤول الجماعة في المملكة دون قرار رسمي بذلك من المرشد العام في مصر.

> منذ أول زيارة إلى البقاع المقدسة، اتجه البنا إلى الترويج لعالمية الجماعة، فموسم الحج هو الفرصة الأنسب للاجتماع بوفود من مختلف الدول الإسلامية

لقد كان لتغلغل جماعة الإخوان المسلمين في المجتمع السعودي، وبخاصة في مؤسسات الدولة، أثره البالغ في ممارسة نشاطهم خلال مواسم الحج والعمرة، الذي سنكتشف لاحقا أن سيستفيد من التحولات الكبرى في المنطقة للترويج لأفكارهم وأدبياتهم، وخاصة من خلال عقد أوّل اجتماع موسع للجماعة في مكة المكرّمة في العام 1973 برئاسة مرشدها العام حسن الهضيبي، وصولا إلى تأثيرات الثورة الإيرانية التي دعمت توجهات الإسلام السياسي بشقيه السنّي والشيعي لتسييس موسم الحج.